المقدمة

من أبرز التطورات التى شهدتها السنوات الأخيرة من القرن العشرين وأشدها إثارة للفزع ظهورُ نزعة الكفاح الدينية، التى شاعت تسميتها بالأصولية، فى إطار كل دين من الأديان الرئيسية، وكانت مظاهرها العملية تثير الذعر فى بعض الأحيان، إذ أطلق الأصوليون الرصاص على المصلّين فى أحد المساجد فقتلوا بعضهم، كما قتلوا بعض الأطباء والممرضات فى عيادات الإجهاض، واغتالوا بعض رؤساء دولهم، وأطاحوا بإحدى الحكومات القوية. وإذا كان ارتكاب مثل هذه الأعمال الإرهابية يقتصر على أقلية صغيرة منهم، فإن موقف المسالمين الذين لا يخرقون القانون يثير الحيرة أيضاً، إذ استحكم العداء بينهم، فيما يبدو، وبين الكثير من القيم الإيجابية الكبرى للمجتمع الحديث.

فالأصوليون المسيحيون يرفضون مكتشفات علم البيولوجيا والفيزياء بشأن أصل الحياة ونشأتها، ويصرون على أن سفر التكوين يتميز بالصحة العلمية في جميع تفاصيله. وبينما نرى الكثيرين يطرحون أغلال الماضي ويكسرونها، ينزع الأصوليون اليهود إلى مراعاة قانونهم المنزّل بصرامة أكبر مما شهده أى عصر مضى، وترفض المرأة المسلمة الحريات التى تتمتع بها المرأة في الغرب، فتلبس ما يسمى بالحجاب والشادور. ويشترك الأصوليون من المسلمين واليهود في تفسير الصراع العربى الإسرائيلى فى إطار دينى محض، وهو الذى نشأ نشأة علمانية صارخة. وإلى جانب ذلك فليست الأصولية مقصورة على أديان التوحيد الكبرى، فهناك نزعات أصولية بوذية، وهندوسية، بل وكنفوشيوسية، وهى ترفض كذلك كثيراً من النظرات العميقة التى توصلت إليها الثقافة الحديثة بعد جهد جهيد، وهى تحارب وتقتل باسم الدين، بل وتكافح حتى تدخل 'المقدس' إلى عالم السياسة والنضال الوطنى.

obeikandl.com

والواقع أن الكثيرين قد فوجئوا بهذه الصحوة الدينية، إذ كان من المسلّم به في سنوات منتصف القرن العشرين، بصفة عامة، أن العلمانية قد أصبحت التيار الذي لا راد له، وأن العقيدة الدينية لن تعود إلى القيام بدور رئيسي في الأحداث العالمية، وكان المفترض أن زيادة عقلانية البشر سوف تؤدي إما إلى استغنائهم عن الدين أو إلى رضاهم عن اقتصاره على المجالات الشخصية والخاصة المباشرة في حياتهم، ولكن الأصوليين بدأوا في أواخر السبعينيات بالتمرد على هيمنة العلمانية، وشرعوا في تخليص الدين من موقعه الهامشي والعودة به إلى بؤرة الصورة. ولقد أحرزوا في ذلك الجهد - على الأقل - نجاحًا مرموقًا، إذ أصبح الدين من جديد قوة لا تملك حكومة أن تتجاهلها آمنة، وإذا كانت الأصولية قد تعرضت لبعض الهزائم فإنها لم تُذعن ولم تستكن، بل أصبحت تمثل عنصراً أساسيًا من عناصر الواقع الراهن، وسوف يكون لها دون شك دور مهم في مجال الشئون المحلية والدولية في المستقبل، وهكذا نجد لزامًا علينا أن نحاول تفهم معنى هذا النمط من أنماط

التدين، وندرك كيف نشأ وتطور وأسباب ذلك، وما يمكن أن يلقيه من ضوء على ثقافتنا، وأفضل أساليب التصدى له.

لكنه ينبغي لنا أولاً أن نقف وقفة قصيرة عند مصطلح "الأصولية" نفسه الذى وجهت إليه انتقادات كثيرة، وكان البروتستانت الأمريكيون هم أول من استعمله، إذ بدأ بعضهم فى العقود الأولى من القرن العشرين يطلقون اسم "الأصوليين" على أنفسهم تمييزاً لهم من البروتستانت "المتحررين" والذين كانوا فى رأيهم يشوهون العقيدة المسيحية تشويهًا كاملاً. كان الأصوليون يريدون العودة إلى الأسس وإعادة تأكيد "أصول" التقاليد المسيحية والتى حددوها بالتفسير الحرفى للكتب المقدسة وقبول مبادئ أساسية معينة فى العقيدة. ولكن مصطلح الأصولية أصبح يطلق بعد ذلك على الحركات الإصلاحية فى أديان العالم الأخرى بأسلوب أبعد ما يكون عن الدقة فهو يوحي، فيما يبدو، بأن الأصولية تتسم بالوحدة والجمود فى جميع مظاهرها، وليس ذلك صحيحًا، فكل نزعة أصولية لها قانونها الخاص بها ومبادئ ديناميتها الخاصة بها، كما أن المصطلح يوحي بأن الأصوليين محافظون ومرتبطون بالماضى فى جوهر فكرهم، والواقع أن أفكارهم ذات طابع حديث فى أساسها، ونزاعة إلى التجديد والابتكار، وإذا كان الأصوليون الأمريكيون قد قصدوا العودة إلى "الأصول" فلقد نهجوا فى ذلك نهجًا حديثًا ومتميزاً فى حداثته. ولقد ساق البعض الحجة على أن ذلك المصطلح المسيحى لا يمكن تطبيقه بدقة على الحركات التى وضعت لنفسها أولويات تختلف اختلافًا كاملاً عما يدل عليه فى المسيحية، فالأصوليون من المسلمين واليهود مثلاً لا تشغلهم كثيراً مسألة مبادئ العقيدة وهى ما يشغل المسيحيين أساساً، والترجمة الحرفية للكلمة الانجليزية Fundamentalism إلى العربية أدت إلى ظهور كلمة الأصولية التى تعنى دراسة الأصول أى مصادر شتى القواعد والمبادئ فى الشريعة الإسلامية، ومعظم المسلمين الذين يطلق عليهم هذا المصطلح فى الغرب لا يقومون بدراسة هذا العلم من العلوم الإسلامية، ولكن لهم اهتماماتهم البالغة الاختلاف. ومن ثم فإن استخدام مصطلح 'الأصولية' مضلل.

وكانت حجة البعض الآخر بسيطة وهى أننا - شئنا أم أبينا - لن نستطيع إقصاء كلمة الأصولية بعد أن شاعت، وهكذا وجدتنى أتفق معهم، فالمصطلح لا

obeikandl.com

يتم بالكمال، ولكنه بطاقة تعريف مفيدة لبعض الحركات التي تتشابه فيما بينها - على اختلافها - تشابه أفراد الأسرة الواحدة. وقد وضع أستاذان هما مارتن أ. مارتي و ر. سكو سكوط أبلبي موسوعة من ستة مجلدات يناقشان فيها "النزعات الأصولية" ويقولان في مطلعها إنها تتبع جميعًا نسقًا محددًا، فهي جميعًا من أشكال الكفاح الروحي الذي نشأ استجابة لأزمة ظاهرة، وهي تخوض صراعًا مع أعدائها الذين يتبعون سياسات وعقائد علمانية تبدو مناهضة للدين نفسه، والأصوليون لا يعتبرون هذه المعركة من قبيل النضال السياسي التقليدي، بل يخوضونها كما لو كانت حربًا كونية بين قوى الخير والشر، وهم يخافون القضاء عليهم وإفناءهم، فيحاولون تحصين هويتهم المحاصرة بدروع منتقاة من بعض عقائد الماضي وممارساته، ويسعون لتجنب التلوث والعدوى بالخروج في أحيان كثيرة على التيار الرئيسي للمجتمع وإنشاء ثقافة مناهضة، ومع ذلك فليس الأصوليون من الحالمين الخياليين، بل إنهم قد استوعبوا العقلانية البراجماتية للحداثة، وهم يسترشدون بزعمائهم من ذوي الشخصيات الساحرة في تشذيب المبادئ الأصولية لوضع المنهج الفكري القادر على توفير خطة العمل اللازمة للمؤمنين، حتى إذا حان الوقت عادوا للقتال فحاولوا إعادة القداسة إلى العالم الذي يزداد انجرافه إلى وهدة الشك.

وأود - في استكشافي لما يترتب على هذه الاستجابة العالمية للثقافة الحديثة - أن أركز على عدد محدود من الحركات الأصولية التي برزت في اليهودية والمسيحية والإسلام، وهي أديان التوحيد الثلاثة. ولكنني لا أعتزم أن أدرسها بمعزل عن بعضها البعض، بل أن أرصد تطورها الزمني جنبًا إلى جنب، حتى نستطيع أن نتبين مدى عمق التماثل فيما بينها. وآمل أن أتمكن عن طريق فحص حركات أصولية مختارة من فحص الظاهرة بعمق أكبر مما قد يتوافر إذا أجريت مسحًا عامًا شاملاً لها. أما الحركات التي اخترتها فهي الأصولية البروتستانتية الأمريكية، والأصولية اليهودية في إسرائيل، والأصولية الإسلامية في مصر، وهي بلد سُنّي، وفي إيران، وهي شيعية. ولا أزعم أن ما توصلت إليه ينطبق بالضرورة على الأشكال الأخرى للأصولية، ولكنني أرجو أن أبين أن هذه الحركات المحددة، التي كانت من أبرز الحركات الأصولية وأبعدها تأثيرًا، تشترك في دوافعها من

المخاوف وبواعث القلق والرغبات، وهي التي تمثل الاستجابة المتوقعة لبعض الصعوبات التي تميزت بها الحياة في العالم العلماني الحديث.

لقد كان هناك دائمًا من يعارض ويكافح تيار الحداثة المعاصر له، في كل عصر وفي ظل شتى التقاليد، ولكن الأصولية التي سوف ننظر فيها حركة تقتصر أساسًا على القرن العشرين، فهي رد فعل موجّه ضد الثقافة العلمية والعلمانية التي ظهرت أول ما ظهرت في الغرب، وإن كانت قد ضربت بجذورها بعد ذلك في مناطق أخرى من عالمنا. لقد أنشأ الغرب نمطًا من الحضارة لم يسبق له مثيل ويختلف اختلافًا كاملاً عما سبقه، ومن ثم فقد كانت الاستجابة الدينية له فريدة في نوعها. وترتبط الحركات الأصولية التي نشأت وتطورت في زماننا ارتباطًا حيويًا بالحداثة، فهي قد ترفض العقلانية العلمية للغرب ولكنها لا تستطيع الهرب منها، إذ أدت الحضارة الغربية إلى تغيير العالم تغييرًا لا يسمح لأي شيء بالعودة إلى ما كان عليه، حتى الدين، بعد أن شُغل الناس في شتى بقاع الأرض بالتصدي لهذه الأحوال الجديدة واضطروا إلى إعادة تقييم تقاليدهم الدينية التي كانت موجهة لنمط بالغ الاختلاف من أنماط المجتمع.

ولقد شهد العالم القديم فترة انتقالية مماثلة، امتدت تقريبًا من عام ٧٠٠ إلى عام ٢٠٠ قبل الميلاد، وهي التي يسميها المؤرخون "العصر المحوري" لأنها كانت تمثل محور التطور الروحي للبشرية. وكان ذلك العصر نفسه ثمرة الازدهار الذي استمر آلاف السنين في المجال الاقتصادي، ومن ثم في المجالين الاجتماعي والثقافي، والذي بدأ في سومر (العراق حاليًا) وفي مصر القديمة. فلم يكتف الناس في الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد بزراعة المحاصيل اللازمة لتلبية احتياجاتهم المباشرة، بل تمكنوا من إنتاج فائض زراعي أتاح لهم الاتجار به والحصول على دخل إضافي، مما مكنهم من بناء الحضارات الأولى، وتطوير الفنون، وإنشاء نظم سياسية ازدادت قوتها باطراد، بدأت بالمدن، ثم تلتها المدن الدول، وأخيرًا جاءت الامبراطوريات. فإذا نظرنا إلى المجتمع الزراعي آنذاك وجدنا أن السلطة لم تعد محصورة في أيدي الملك أو الكاهن المحلي، بل بدأت تتحول - ولو جزئيًا على الأقل - إلى السوق، الذي أصبح مصدر ثراء كل ثقافة. وفي هذه الظروف التي تغيرت بدأ الناس أخيرًا في إدراك أن الوثنية القديمة التي كانت تلبي احتياجات أسلافهم لم

تعد تعبرّ التعبير الصادق عن أحوالهم.

وبدأ المواطنون في المدن والامبراطوريات إبان العصر المحورى يكتسبون منظوراً أوسع للوجود وتنفتح أمامهم آفاق أرحب وأعرض، مما جعل الديانات المحلية القديمة تبدو محدودة وضيقة. وهكذا فبعد أن كانوا يرون الألوهية مجسدة في عدد من الأرباب المختلفة، ازداد اتجاههم إلى عبادة مصدر واحد عالمي شامل للتعالي والقداسة. وتوافر لهم من وقت الفراغ ما أتاح لهم تنمية حياة باطنية حافلة، ومن ثم باتوا يرغبون في حياة روحية لا تعتمد اعتماداً كاملاً على الأشكال الخارجية، وكان أشدهم حساسية يستاء من الظلم الاجتماعي الذى كان، فيما يبدو، ذا جذور راسخة في ذلك المجتمع الزراعي، إذ كان يعتمد على عمل الفلاحين الذين لم تتح لهم الفرصة يوماً ما للاستفادة من ثمرات الثقافة الرفيعة. ومن ثم جاء الأنبياء والمصلحون الذين كانوا يصرون على أن فضيلة التراحم جوهرية للحياة الروحية، قائلين إن القدرة على رؤية القداسة في كل إنسان فرد، والرغبة في تقديم الرعاية العملية للمستضعفين من أفراد المجتمع، هما معيار التقوى الصادقة. وهكذا نشأت العقائد الدينية العظمى في العصر المحورى، والتي استمرت في هداية الجنس البشرى، في كنف العالم المتحضر، فنشأت البوذية والهندوسية في الهند، والكونفوشيوسية والتاوية في الشرق الأقصى، ودين التوحيد في الشرق الأوسط، والعقلانية في أوروبا. وعلى الرغم من الاختلافات الشاسعة فيما بينها، فلقد كانت هناك خصائص مشتركة كثيرة تجمع أديان العصر المحورى، إذ كانت تستند إلى تقاليد الماضي في تطوير فكرة الوجود المتعالي الواحد، وتغرس بذور الحياة الروحية الداخلية وتؤكد أهمية التراحم عملياً.

ونحن نشهد اليوم، كما سبق أن أشرنا، فترة انتقالية مماثلة، تضرب جذورها في القرنين السادس عشر والسابع عشر من عصرنا الحديث، إذ بدأ الناس في أوروبا الغربية ينشئون نمطاً مختلفاً من أنماط المجتمع، لا يعتمد على الفائض الزراعي بل على التكنولوجيا التى تمكنهم من تجديد مواردهم بلا حدود. كما صاحبت التغيرات الاقتصادية التى حدثت في القرون الأربعة الأخيرة ثورات اجتماعية وسياسية وفكرية عارمة، إلى جانب نشوء مفهوم علمي وعقلاني ومختلف تمام الاختلاف لطبيعة 'الحقيقة'، وهكذا أصبح من الضرورى، من

Obeikandl.com

جديد، إجراء تغيير دينى جذرى. فالناس يكتشفون اليوم فى كل مكان فى العالم أن أحوال الحياة التى تغيرت تغيرات هائلة لم تعد تسمح لأشكال العقيدة القديمة بتلبية احتياجاتهم أى إنها لم تعد قادرة على تزويد أبناء البشر بما يبدو أنهم يحتاجون إليه من تنوير ومن تسرية وسلوى. ونتيجة لذلك يحاول الرجال والنساء أن يجدوا أساليب جديدة للتديّن، فهم يحاولون مثل مصلحى العصر المحورى وأنبيائه أن يستندوا إلى نظرات الماضى العميقة فى بناء كل ما من شأنه مساعدة البشر على دخول العالم الجديد الذى خلقوه لأنفسهم. ومن إحدى هذه التجارب الحديثة - مهما تكن المفارقة البادية فى قولى هذا - تجربة الأصولية.

إننا نميل إلى افتراض أن الناس فى الماضى كانوا (إلى حد ما) مثلنا، ولكن حياتهم الروحية كانت فى الواقع مختلفة بعض الشىء، فلقد وضعوا - بصفة خاصة - طريقتين للتفكير والكلام واكتساب المعرفة أطلق عليهما العلماء اسمين هما الميثوس واللوغوس أو المنطق الروحى ومنطق العقل وكان كلاهما ذا أهمية جوهرية، بل كانا يعتبران طريقتين متكاملتين للتوصل إلى الحقيقة، وكان لكل منهما مجال اختصاصها. كان المنطق الروحى يعتبر أوليًا، وكان يُعنى بما يعتقد أنه 'لازمنى' وثابت فى وجودنا. أى إنه كان يرجع فى نظرته إلى أصول الحياة، وإلى أسس الثقافة، وإلى أعمق مستويات عقل الإنسان. فهو لا يهتم بالأمور العملية بل بالمعنى. فإذا لم نجد بعض دلالة أو مغزى لحياتنا، فما أيسر أن نَسْقُطَ، نحن الرجال والنساء من أبناء البشر الفانين، فى هوة اليأس، وهكذا فإن هذا المنطق الروحى هو الذى كان يهيئ لأبناء المجتمع السياق اللازم لإضفاء معنى ما على حياتهم اليومية، فكان يوجه انتباههم إلى ما هو أبدى وعالمى، كما كان يضرب بجذوره فيما يمكن أن نسميه باللاوعى. ولم يكن المقصود بالقصص القائمة على منطق الروح أن تُفَسَّرَ تفسيرًا حرفيًا، بل هى تمثل شكلاً قديمًا من أشكال علم النفس. وعندما كان الناس يحكون الحكايات عن الأبطال الذين يهبطون إلى العالم السفلى، أو يجتهدون للخروج من التيه، أو يحاربون الوحوش، كانوا فى الحقيقة يلقون الضوء على مجاهل عالم اللاوعى، وهى المجاهل التى تستعصى على الفحص العقلانى المحض ولو أنها تؤثر تأثيرًا بالغ العمق فى خبراتنا وسلوكنا. ولما تضاءل وجود منطق الروح فى مجتمعنا الحديث، اضطررنا إلى وضع علم التحليل النفسى

لمساعدتنا على تناول عالمنا الداخلي.

كان منطق الروح يستعصي على الأدلة العقلانية، فنظراته العميقة تستند إلى الحدس، شأنها في ذلك شأن نظرات الفن والموسيقى والشعر والنحت. ولم يصبح ذلك المنطق الروحي واقعًا إلا عندما تجسد في العقيدة والطقوس والمراسيم الاحتفالية، وكان العابدون يتأثرون بها تأثرًا جماليًا، إذ تثير فيهم لونًا من الدلالة المقدسة وتمكنهم من إدراك التيارات العميقة للوجود. وكان منطق الروح يرتبط ارتباطًا حميمًا بالعقيدة إلى الحد الذي جعل العلماء يختلفون في تحديد السابق منهما إلى الوجود: أتراه كان منطق الروح أم الطقوس المرتبطة به؟ كما كان منطق الروح مرتبطًا أيضًا بالتصوف، أي النزول إلى أعماق النفس عن طريق أساليب ذات خطوات محددة ومنتظمة للتحكم في الوعي والتركيز، وهي الأساليب التي نشأت في جميع الثقافات للتوصل إلى النظرات الحدسية. أي إنه لابد من وجود عقيدة أو ممارسة صوفية حتى يمكن للمنطق الروحي أن يكتسب معنى دينيًا، بل إن مثل هذا المنطق الروحي يظل معلقًا في الهواء بل وربما بدا زائفًا، مثلما تظل النوتة الموسيقية المكتوبة غامضة بالنسبة لمعظمنا، ولا يمكن لنا أن نتذوق جمالها إلا حين تعزفها الآلات المختلفة ويصل صوتها إلى أسماعنا.

وفي الفترة التي سبقت عالمنا الحديث، كانت رؤية الناس للتاريخ مختلفة بعض الشيء، فكانوا أقل اهتمامًا منا بما حدث فعلاً، وأكثر اهتمامًا بمعنى الحادث. ولم يكونوا ينظرون إلى الأحداث التاريخية باعتبارها وقائع فريدة، حدثت في زمن سحيق، بل باعتبارها تجليات مادية لحقائق ثابتة ولا زمنية. ومن ثم قيل إن التاريخ يعيد نفسه لأنه 'لا جديد تحت الشمس'، فكانت القصص التاريخية تحاول إظهار ذلك الطابع الأبدي للأحداث. وهكذا فنحن لا نعلم التفاصيل الواقعية الدقيقة لما حدث فعلاً عندما فر بنو إسرائيل من مصر وعبروا البحر، إذ كتبت القصة عمدًا في الكتاب المقدس بمنطق الروح، وأقيمت الروابط بينها وبين القصص الأخرى الخاصة بطقوس المرور، والغمر في ماء البحر، والآلهة التي تشق البحر نصفين لتخلق واقعًا جديدًا. ويعايش اليهود هذا المنطق الروحي كل عام في طقوس عيد الفصح التي تدفع بهذه القصة الغريبة إلى واقع حياتهم وتساعدهم على جعلها قصة يهود اليوم. وقد نكون مصيبين إذا قلنا إن الحادثة التاريخية لابد أن تكون

ذات منطق روحي على النحو المشار إليه، وأن تتحرر من الماضي في إطارِ عقيدة موحية، حتى يصبح لها معنى ديني. أما التساؤل عما إذا كان الخروج من مصر قد وقع حرفيا على النحو الوارد في الكتاب المقدس، أو المطالبة بأدلة تاريخية أو علمية لإثبات الصدق الفعلي للأحداث، فهو يعني عدم فهم طبيعة القصة والغرض منها. أي إن ذلك معناه الخلط بين المنطق الروحي وبين المنطق العقلاني.

كان للمنطق العقلاني أهميته المماثلة، إذ كان معناه التفكير العقلاني والبراجماتي والعلمي الذي يمكّن الرجال والنساء من النهوض بالعمل على خير وجه في الدنيا. وربما نكون قد فقدنا منطق الروح في الغرب اليوم، ولكننا نألف المنطق العقلاني كل الألفة، فهو أساس مجتمعنا، وهو يختلف عن الأول في أنه لابد أن يكون مرتبطًا بالحقائق ومتفقًا مع الوقائع المادية وإلا فقد تأثيره، أي إنه لابد أن يعمل بفعالية في العالم الدنيوي. ونحن نستخدم هذا التفكير المنطقي العقلاني عندما نضطر إلى القيام بفعل ما أو التسبب في وقوعه أو إقناع غيرنا من الناس باتخاذ خطوات عملية معينة. فالمنطق العقلاني ذو طابع عملي. وعلى عكس المنطق الروحي الذي يُلقي بالبصر إلى الخلف فيرجع إلى الأصول ويرجع إلى الأسس، نجد أن المنطق العقلاني ينطلق إلى الأمام ويحاول العثور على ما هو جديد، وذلك بتطوير النظرات العميقة القديمة، وزيادة السيطرة على البيئة التي نعيش فيها، واكتشاف شيء جديد، واختراع شيء مبتكر.

وكان الناس في العالم الذي سبق عالمنا الحديث يرون أنه لا غنى مطلقًا عن الاثنين، أي عن المنطقين الروحي والعقلاني، فغياب أحدهما يؤدي إلى فقر صاحبه، ومع ذلك فقد كان كل منهما يتميز تميزًا واضحًا عن الآخر، وكان الناس يرون أن خلط هذا بذاك أمر خطر، فلكل منهما دوره المنوط به، فالأول لا يعتمد على العقل، ولم يكن من المفترض إمكان إثبات صحة ما يرويه بالطرائق التجريبية العملية، فهو يوفر سياق المعنى الذي يجعل ما نفعله جديرًا بفعله. ولم يكن من المفترض أن يصبح منطق الروح أساسًا لسياسات براجماتية، فإذا حدث ذلك فربما كانت العاقبة وخيمة، لأن طرائق النجاح في العالم الداخلي للنفس لا يمكن تطبيقها بيسر على شئون العالم الخارجي. وهكذا فعندما دعا البابا أوربان الثاني إلى القيام بالحملة الصليبية الأولى في عام ١٠٩٥، كانت الخطة التي وضعها

تنتمي إلى عالم المنطق العقلاني إذ كان يريد أن يكف فرسان أوروبا عن الاقتتال الذي كان يمزق العالم المسيحي الغربي تمزيقًا، وأن يوجهوا طاقاتهم إلى شن حرب في الشرق الأوسط، تؤدي إلى بسط نفوذ كنيسته وسلطانها. ولكن خيوط هذه الحملة العسكرية تشابكت مع خيوط المنطق الروحي الذي كان يتجلى في الأساطير الشعبية، والتراث الأدبي للكتاب المقدس، وخيالات الرؤى والنبوءات، فانتهت بكارثة عملية وعسكرية ومعنوية. وقد أثبتت الحملات الصليبية في جميع مراحلها أنه كلما سطع نجم المنطق العقلاني، أصاب الصليبيون النجاح، فأحسنوا القتال في ميدان المعركة، وأنشأوا مستعمرات قادرة على البقاء في الشرق الأوسط، وتعلموا إقامة علاقات إيجابية تربطهم بالسكان المحليين. أما عندما بدأ الصليبيون يقيمون سياساتهم على أسس من الرؤى القائمة على منطق الروح والقصص الأسطورية أو الصوفية، فقد كانوا يُمنَوْن عادة بالهزيمة ويرتكبون أبشع الفظائع.

ولكن المنطق العقلاني له حدوده هو الآخر، فهو يعجز عن تخفيف آلام البشر وأحزانهم، والحجج العقلانية تعجز عن إبراز معنى الفاجعة، كما يعجز المنطق العقلاني عن إجابة الأسئلة الخاصة بالقيمة النهائية لحياة الإنسان، وإذا كان العالم يستطيع أن يزيد من كفاءة عمل الأشياء وأن يكتشف حقائق جديدة ورائعة عن العالم المادي، فإنه لا يستطيع أن يشرح معنى الحياة. فذلك هو المجال المخصص لمنطق الروح والعقيدة.

لكنه ما إن حل القرن الثامن عشر حتى كان الناس في أوروبا وأمريكا قد حققوا من النجاحات الباهرة في العلم والتكنولوجيا ما دفعهم إلى الظن بأن المنطق العقلاني هو السبيل الأوحد إلى الحقيقة، وبدأوا يطرحون منطق الروح ظهريا باعتباره مصدر الأكاذيب والخرافات. ومن الصحيح أيضًا أن العالم الجديد الذي كانوا يخلقونه كان يتناقض مع المبادئ الدينامية للروحانية القديمة. لقد اختلفت خبرتنا الدينية في العالم الحديث، ولما كان الذين يعتبرون أن الحقيقة مقصورة على العقلانية العلمية يزداد عددهم باطراد، وجدنا أنهم كثيراً ما يحاولون تحويل منطق الروح من مجال العقيدة إلى مجال المنطق العقلاني؛ ولقد أقدم الأصوليون أيضًا على هذه المحاولة، وأدى هذا الخلط إلى نشأة المزيد من المشكلات.

إننا نحتاج إلى أن نفهم كيف تغير عالمنا، ومن ثم فسوف يرجع هذا الكتاب في القسم الأول إلى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، وهي الفترة التى بدأ فيها أبناء أوروبا الغربية في وضع العلم الجديد. وسوف نفحص أيضًا الإيمان القائم على منطق الروح الذى كان سائدًا فى الحضارة الزراعية التى سبقت الحضارة الحديثة حتى نرى كيف نجحت الأشكال القديمة للعقيدة. ولقد كانت لعملية "التحديث" آلامها في كل زمان، إذ يشعر الناس بالاغتراب والضياع عندما يتعرض المجتمع الذى يعيشون فيه لتحولات أساسية تجعل العالم يبدو غريبًا ويصعب التعرف عليه، وسوف نرصد تأثير الحداثة فى المسيحيين فى أوروبا وأمريكا، وفى اليهود، وفى المسلمين فى مصر وإيران، وسوف نستطيع عندها أن نرى ما كان الأصوليون يحاولون أن يفعلوه عندما بدأوا فى ابتكار هذا الشكل الجديد من أشكال العقيدة فى أواخر القرن التاسع عشر.

إن الأصوليين يشعرون أنهم يحاربون بعض القوى التى تهدد أقدس قيمهم، ويتعذر كثيراً على المقاتلين وهم فى غمار النزال أن يقدروا مواقف بعضهم البعض، وسوف نرى أن التحديث قد أدى إلى استقطاب المجتمع، ولكن يجب علينا، درءًا لتصاعد الصراع، أن نحاول أن نتفهم آلام الطرف الآخر وتصوراته. ويصعب على الذين يستمتعون بحريات الحداثة ومنجزاتها، وأنا منهم، أن يتفهموا مدى الأحزان التى تثيرها فى نفوس الأصوليين الدينيين. ومع ذلك فكثيراً ما يرى الناس التحديث لا فى صورة تحرير بل فى صورة هجوم عدوانى . ولقد عانى اليهود مر المعاناة فى العالم الحديث، ولذا فمن المناسب أن نبدأ بالصدام، الذى أصابهم بجروح، مع مجتمع التحديث فى عالم المسيحية الغربى فى أواخر القرن الخامس عشر، مما أدى بهم إلى توقع كثير من المكائد والمواقف والمبادئ التى أصبحت شائعة فيما بعد فى العالم الجديد.